فما له من نور

ولدتُ هكذا.. أعمى.. أو هكذا قالوا لي: أنت أعمى.. لم أفهم أبداً ــ وحتى هذه اللحظة ــ الفرق بين الأعمى والمبصر.. فأنا لم أجرب من قبل أن أكون مبصراً.

قالوا لي منذ أن كنت طالباً صغيراً أن ذلك ولّد عندي خيالاً جامحاً وقدرة كبيرة على التصور، وولّد عندي أيضاً قدرة أكبر من هؤلاء المبصرين في التمييز.. فالموزة مثلاً أعرفها من ملمسها وعندما أقشرها أشمها فأعرف أن هذه اسمها موزة. ولد ذلك عندي تمييزاً أكبر من أقراني؛ لأن ليست كل موزة مثل أختها في الطعم ولذا فإن حاساتي الأخرى أصبحت أقوى من أقراني أو هكذا قالوا لي.. كنت أغار و أغتاظ كثيراً عندما يأتي الشتاء.. فأنا بطبعي أشتهي الفاكهة كثيراً. وفاكهة الشتاء المشهورة هي البرتقال.. ومثلها مثل باقي الفواكه أميزها بطعمها وملمسها ورائحتها، ولكن ما يغيظني في البرتقال أنها تسمى حسب لونها وأنا حتى هذه اللحظة لا أفهم معنى اللون.. وأستطيع أن أفهم أن هذه الكرة مدورة وأن القلم مدبب.. أستطيع أن أتذوق و أميز

التمر شديد السكر والأكل المالح وهكذا.. أما اللون فلا.. لا أستطيع أن أتخيله أو بالأحرى أن أفهم معناه.. هل هو الملمس؟.. هل هو الشكل؟.. لم أفهم ذلك أبداً.. أغاظني ذلك بشدة منذ أن كنت طفلاً صغيراً.. حتى قال لي معلمي ذات يوم هناك أشياء في هذه الدنيا يعرفها البعض ولا يعرفها الآخرون.. وأنت مثلك مثل الطفل الصغير الذي يسمع عن اللذة الجنسية ولا يتصورها ولا يفهمها.. لا يعرفها حق المعرفة إلى أن يبلغ الحلم.. لم أفهم ما يقول إلى أن تزوجت واعتقدت أن مفهوم اللون الذي يتحدثون عنه له لذة مثل تلك.. وأثر ذلك فيّ بشدة، خاصة عندما يغيظني أحدهم ويقول لي: أن الشمس لونها أصفر!! فبالنسبة لي هذه الجملة معناها تماماً كأنني أقول: الشترة لونها بركل!!! فأنا لا أعرف في الجملة السابقة إلا كلمة: «لون» وذلك لسماعي إياها.. ولكن ما الشمس! وما الأصفر؟!!.. قالوا لي: أن الشمس تنير الكون ، قلت لهم: ولكن ذلك هو الله ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35] قالوا لي: ولكن الشمس تنير فقط وليس لديها قدرة.. ففهمت أن كل ما في الكون أياً كانت صفته فتلك الصفة من الله وإلى الله ولذلك لم يقل الله سبحانه: «الله منير السمٰوات والأرض» بل هو نور السمٰوات والأرض... ولكن مهلاً.. ما النور؟! قالوا لي:

أنت ما تراه الآن هو الظلام الدامس، وهو بالمناسبة تستطيع القول أنه ذو لون أسود..

ولذلك لم أعرف في حياتي إلا هذا اللون.. وعلى عكس الناس جميعاً كنت أحبه.. وكنت أطلب من زوجتي أن تلبس لي رداءً أسود حتى أستطيع أن أتخيله أكثر.. ولذلك أيضاً أحببت الكعبة حباً شديداً عندما طفت حولها.. قالوا لي: إنها مكسوة بلباس أسود.. ولذلك أحببت ذلك اللون فكلما ذكره أحدهم كنت إلى حد ما أفهم ما الذي يعنيه.. لا أستطيع أن أنسى تلك المرة التي كنت أطوف فيها حول الكعبة:

كنت أتخيل شكلها وبالتقريب أتخيل لونها.. أصبح مفهوم اللون عندي الآن أن ما ليس أسود فهو ذو لون آخر.. وبذلك تخيلت الكعبة يحوطها ذلك اللون الآخر وأخذت أطوف وسط همهمات الطوافين ودعائهم.

وفي الشوط الخامس ربّت أحدهم على كتفي برفق وقال لي وكأني أسمعه بوضوح وسط الطوافين: هل تريد أن ترى باقي الألوان؟!..

انتفضت بشدة.. فطالما انتظرت تلك اللحظة التي أستطيع أن «أرى» تلك الألوان التي طالما سمعت عنها.. أيكون ذلك

معقولاً؟ سؤال سأله عقلي.. ووجدتُ لساني ينطق به.. فرد عليّ ذلك الصوت بهدوء: بالطبع معقول.

أخذ يدي برفق وطاف بي الشوطين الآخرين ثم وجدته يجذبني نحوها.. نعم نحو الكعبة.. رأساً..

لحظات عجيبة تلك عندما تقترب منها.. تشعر وكأن الزمن قد توقف من حولك.. وكأن الجميع من حولك قد تسمر وأنت الوحيد الذي يتنفس بالحياة وتكاد تسمع نبضات قلبك يخالطه طنين في أذنيك..

قلت له بدهشة: هل سندخل؟

وكأنني رأيته يبتسم وهو يقول بحنان: نحن الآن بداخلها..

خرجت من صدري شهقة دون إرادتي.. وتلفتُ حولي وأنا أفرد ذراعيّ الاثنين أكاد لا أصدق..

أخذت أتلفت حولي للحظات ثم التفتُ حيث ظننت أنه واقف وقلت له: ولكنك قلت لي أنني سأرى باقي الألوان..

رد بحسم: ليس الألوان فحسب.. افتح عينيك وستفهم ماذا أعني.

سرت في جسدي قشعريرة قوية: أيكون هذا معقولاً؟ هذا ليس بالحلم فأنا كنت مستيقظاً أطوف حول البيت.. ماذا يحدث

لي؟ من هذا الرجل؟.. هل سأرى الألوان؟!.. كيف ذلك وقد أكد لي الأطباء من قبل استحالة ذلك!!

وكأنه فهم ما يجول بخاطري فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40].. ثم سألني: هل تظن أن العين هي التي ترى؟! ثم استطرد: بل إن الأشياء هي التي تُرى.. ألم تسمع عن العالم المسلم ابن الهيثم؟!

قلت له: بلى فكان يؤمن على عكس من سبقه أن الأشياء هي التي تعكس ذلك الذي تسمونه باللون، وأن الشيء يمتاز بلون معين؛ لأنه يمتص جميع الألوان ما عدا ذلك اللون الذي نراه عليه فيعكسه إلى العين..

قال لي: أحسنت و لقد كان محقاً: إذاً فما العين إلا أداة للرؤية والدليل على ذلك أن المبصر قد يرى شيئاً في النهار المنير ولا يرى نفس الشيء بنفس عينه عندما يحل الليل ويغشاه الظلام...

قلت له: وماذا يعني هذا لي؟

سكت قليلاً ثم قال: أكشف عنك وعن بصرك الظلام بأن تكشف عن بصيرتك الغشاوة.. عندها فقط سترى كل شيء..

ثم ردد ما قاله سابقاً: افتح عينيك وستفهم ما أقول..

أخذت نفساً عميقاً ثم تردد قليلاً وقررت أن أفتح عيني. . .

فتحتُ عيني ببطء ونبضات قلبي تتسارع بجنون وأنا أكاد أكتم نفسي رويداً رويداً. .

وفجأة ولأول مرة في حياتي رأيت تلك النقطة اللاسوداء تقترب من بعيد. . وتقترب. . وتقترب. . ويزداد حجمها. . ويزداد. . فجأة. .

اتسعت تلك النقطة وأصبحت هالة كبيرة تغمرني من كل جانب. . أحسست ببعض الألم في عيني. . ورويداً رويداً. . أصبحت أميز أشياء أخرى لم أكن لأتخيلها بالمرة. . وكأنني قد بلغت الحلم مرة أخرى. . نشوة لذيذة تلك التي سرت جسدي كله فأصبحت كالمحلق في السماء. . عندما ظننت أنني أفقت من نشوتي. . تلفت لأرى صديقي الغريب ولكني لم أره. . نعم لقد قصدت ما قلت «لم أره». . فأنا أستطيع أن أرى الآن. . رباه ما أجمله شعور وما أحلاها نشوة. . . .

اتجهتُ نحو باب الكعبة باعتداد وفتحته بقوة وكدت أخطو خطوة إلى الخارج. . ولكنني تسمرت في مكاني في ذهول. . ونظرت إلى الأفق البعيد ولم أصدق ما أراه. . نظرت نظرة سريعة إلى أسفل. . ومن خلال السحب البعيدة وجدت حركة الطوافين ما زالت مستمرة. . نظرت تارة أخرى إلى الأفق وتأملت وملأت

عيني بتلك الحديقة الخضراء مترامية الأطراف من أمامي.. سمعت خرير الماء من ذلك النهر المتدفق الذي يتفجر من تحت تلك الحديقة.. ورأيت الشمس تشرق من الأفق البعيد.. عندها فقط أيقنت تماماً أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة.. وأن بصري اليوم حديد...